صحراء الانتظار، لكن الانتظار انتهى وقضيتهم لم تصل، وكانوا هم بداية كل محاولة...

سلكوا طرقا شتى في الغابة الكثيفة، ولكن الصمت في الغابة كان يسود، والرتابة تنتصر، والنسيان عند الآخرين يتراكم مثل طبقات العشب في قارة مجهولة، وأخيرا اهتدى الفلسطينيون إلى طريقهم الوحيد، ثورة الدم والنيران، أسراب من الطيور، كل طائر يحمل في منقاره قشة مشتعلة يلقيها في الحقل وها هي النار تشتعل.

في بداية الخمسينات، كان مخيم دير البلح في قطاع غزة، يتكوّم حول نفسه على شاطىء البحر... خليط متنافر من الأكواخ الطينية والخيام بأشكالها المختلفة... وكان أهالي المخيم يبدون في معظم الأحيان كأنهم يجتازون تلك المسافة بين الغيبوبة والصحو، قرويون جنوبيون تجمّعوا في ذلك المخيم مع بعض البدو الرحّل وعائلات قليلة العدد من سكان المدن الذين هاجروا وألقت بهم الرياح في ذلك المخيم.

وكان ذلك الزحام بلهجاته وأزيائه، وبعض عاداته، يوشك أن يتآلف ليتشكل منه بعد ذلك شيء اسمه مجتمع المخيم. على جانبي المخيم، من الشمال والجنوب، كانت توجد نقطتان لحرس السواحل الهجانة السودانيين، جنود سود يركبون جمالا ضامرة الأجسام سريعة العدو يضعون على رؤوسهم أغطية رأس بيضاء كبيرة كأنها الأهرامات المدرجة، ويحملون في أياديهم باستمرار كرابيج بعدة شُعَب، يجعلونها تصفر في الهواء، يستحثون بها الجمال على مزيد من السير أو الجري، وكان مرور أولئك الهجانة السودانيين من المخيم يثير الذعر في قلوب الأطفال، ويجعل الكبار يتوجسون شرا...

ذات يوم قبل صلاة الجمعة، كان وسط المخيم يموج بزحام كثيف، باعة الخضار والفواكه والحبوب والملابس القديمة وضعوا بضاعتهم على الأرض، وراحوا ينادون... ورجال ونساء وأطفال جاؤوا إلى السوق يشترون بعض الحاجيات، أو يسألون عن آخرين لعلهم يجدونهم في السوق، أو يروّحون عن النفس ساعة هربا من هذا الحصار الخانق في مخيم منفي وراء الحدود، وكان من بين المتواجدين في السوق صيّاد سمك شهير في المخيم اسمه الصلفوح لأنه فعلا يشبه سمكة كبيرة بنية اللون، وضع الصلفوح أمامه فرشا خشبيا مليئا بالسمك وراح ينادي:

ـ طازه يا سمك، صيد العصاري يا سمك.

وكان كل شيء يوحي أن ذلك اليوم يمكن أن يمر بسلام، لولا أن الهجانة جاؤوا يركبون جمالهم العجيبة، سَرَت الرعشة في أوصال الزمام البشري الذي يحتشد في السوق، وتشبّث الأطفال الصغار بأطراف ثياب أمهاتهم، لكن في الدقائق الأولى لم يحدث شيء، وعاد الصلفوح بنداءه يعيد الطمأنينة إلى نفسه وإلى الآخرين: طازه يا سمك، صيد العصاري يا سمك.

واحد من الهجانة اقترب بجمله ووقف أمام الصلفوح، فبادره الصلفوح بكلمات خافتة وخجولة: يا أخ لو سمحت تبعد شوية...